

■ مقالته

البيئة الفكرية في النجف الأشرف

إلى عصر الشيخ المظفر رحمته الله

■ الدكتور الشيخ علي عبد الحسين المظفر

إن هذا العرض الموجز لأهم المصنفات الرجالية لمدرسة النجف العلمية الذي لم يحص جميع المصنفات خشية الإطالة، وإنما ذكر لأجل الوقوف على الجهد الرجالي لهذه المدرسة، وكان للشيخ المظفر نصيب في هذا الجانب وإن تفرّد في بحثه عما بحث في مدرسة النجف من جهد رجالي أحادي الجانب، فقد درس الشيخ المظفر رجال الحديث عند أهل العامة مبيناً عللهم، وناقد الأسانيد كتبهم الحديثية المعتمدة، وهذا ما سنعرضه بالتفصيل من خلال فصول الكتاب.

من أقدم الأسر العلمية في مدينة النجف ولم تذكر لنا المصادر تاريخ نزوح هذه الأسرة إلى النجف، لكن الشيخ جعفر محبوبة يذكر أنها عرفت في القرن الرابع الهجري، وبقيت شهرتها إلى أواخر القرن الرابع الهجري، وبقيت شهرتها إلى أواخر القرن السادس الهجري ثم خمد ضوءها وانقطع ذكرها أما لانقراضهم أو لتغيير الألقاب وتبدل العنوان وتناسي الألقاب كما هو الشأن في الكثير من الأسر القديمة، وتنسب هذه الأسرة إلى المقداد بن الأسود الكندي الصحابي المعروف.

وقد خدمت هذه الأسرة المرقد العلوي عدة أعوام وتشرفوا بالوقوف بأعتابه المقدسة إلى جانب ذلك عرفت هذه الأسرة بالعلم والفضيلة وأنجبت عددا من العلماء والفقهاء الذين أشارت إليهم كتب التراجم ومن أهم من اشتهر منها في ميدان العلم: ١- الشيخ حسن محمد بن الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحال المقدادي وبعد من أهم أعلام أسرة آل طحال، قال عنه الأفندي: الشيخ حسن بن طحال من أكابر علمائنا قد ينقل عنه السيد بن طاووس في جمال الأسبوع لبعض الأخبار وينقل عنه السيد عبد الكريم بن طاووس بعض الكرامات التي ظهرت في المرقد الشريف وتوفي في أواخر المائة السادسة، لأنه ينقل عنه عبد الكريم بن طاووس في كتابه فرحة الغري في سنة ٥٨٤هـ و٥٨٧هـ بعد وفاة الشيخ محمد.

٢- الشيخ الأمين أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن طحال المقدادي، وتذكره بعض المصادر بالحسين بن محمد بن طحال حيث ينسب إلى الجد لشهرته والظاهر هو اتحاد الاسمين كما ذكر الأفندي وينقل عنه السيد ابن طاووس، أخبرني الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي.

٣- علي بن الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي، فاضل عالم جليل وكان بيده مفاتيح المرقد العلوي في السنة التي زار بها عضد الدولة مرقد الإمام علي عليه السلام سنة ٣٧١هـ وقد وقع الأفندي في وهم عندما ذكر أن أبوه أيضا من الفضلاء ويروي عن الشيخ أبي علي الحسن بن محمد ولد الشيخ الطوسي، وهذا غير ممكن وذلك لأن الفترة الزمنية الواقعة ما بين زيارة عضد الدولة البويهية وتقلد الشيخ أبي علي الطوسي الزعامة الدينية بعد وفاة والده في سنة ٤٦٠هـ في ٨٩عاما، إلا أن يكون من المعمرين، وقد نقلها الشيخ جعفر محبوبة دون أن يحقق في نص الرواية، ولا نعلم إذا كان والد الشيخ علي حيا عند زيارة عضد الدولة أو ميتا.

٤- الشيخ محمد بن الحسن بن أحمد بن علي طحال المقدادي الحائري، قال عنه منتجب الدين، فقيه صالح، أما الحر العاملي، فاضل فقيه، وهو من أعلام القرن السادس الهجري، وكان هو ووالده من خدام الحضرة الشريفة وخزنتها قرأ على يد الشيخ أبي علي الطوسي، وكانت وفاته في حدود سنة ٥٨٠هـ. وقد انطمس ذكر هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري أما لانقراضها أو تغيير الألقاب أو انتقالهم إلى مدينة أخرى.

(المصدر: كتاب: الأسر العلمية في مدينة النجف الأشرف للدكتور محمد جواد فخر الدين.)

من مراكز الفكر والثقافة الإسلامية، ومعهذا نشطاً أنجب الآلاف من الفقهاء والمجتهدين والمراجع والأساتذة والشعراء والمجاهدين.

إن هذا القرن هو الذي عاشه الشيخ المظفر، فقد تميّز بظهور أساطين العلم والفكر الذين قادوا حركة التجديد في الفقه والأصول، واستقرت بوجودهم المرجعية العليا للشيعة، كالشيخ محمد كاظم الخراساني (ت: ١٢٢٩ هـ) صاحب كتاب (كفاية الأصول)، والسيد محمد كاظم اليزدي (ت: ١٢٣٧ هـ)، وشيخ الشريعة (ت: ١٢٣٩ هـ) ومن جاء بعدهم من الأعلام. فكان لهؤلاء الأثر الكبير في تهينة البيئة العلمية، والنضج الفكري لدى الشيخ المظفر بما قدّمه من إسهامات علمية متنوعة في الفقه والأصول والحديث والكلام والأدب. إن هذا العرض السريع لتاريخ هذه المدرسة في هذه الوريقات المحدودة لا يمكن أن يعكس تاريخ علم، وحاضرة فكر كمدينة النجف الأشرف.

■ جانب من النشاط العلمي والفكري الخاص بعلم الرجال في مدرسة النجف الأشرف

ونعرض هنا الجانب من جوانب النشاط العلمي والفكري لهذه المدرسة الخاص بعلم الرجال، الذي يعدّ أحد الموضوعات المهمة في الدرس الفقهي والأصولي والذي لم يكرس له درس خاص في الدراسة الحوزوية، وما صنّف فيه لم يكن قد أخذ نصيبه من الدراسة الكافية، كما هو الحال في علم الفقه والأصول، على أن هذا العلم «يرافق الطالب في جميع أطوار الدروس حيث إنها تدرس ضمن مباحث ومطالب الكتب الدراسية المقررة في علمي الفقه وأصول الفقه، وقد يتعرّض الأساتذة في أبحاثهم بالشرح والتحليل لموضوعات ومباحث ومسائل تتعلق بهذا العلم».

وكان ممّا صنّفه علماء هذه المدرسة في حقل الدراسات الرجالية خلال القرنين المتأخرين:

١. كتاب (الفوائد الرجالية) للسيد محمد مهدي بحر العلوم (ت: ١٢١٢ هـ/ ١٧٩٧م).
٢. كتاب الفوائد الرجالية السيد محمد رضا بحر العلوم (ت: ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧م).
٣. إملاءات الشيخ محسن خنفر النجفي (ت: ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٤م) على تلامذته في الرجال وكان من مشاهير العلماء في الدراية والرواية.
٤. كتاب (توضيح المقال في علم الدراية والرجال) للشيخ علي بن محمد الكني النجفي (ت: ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٧م).
٥. (أرجوزة في علم الرجال) نظم الشيخ عبد الرحيم بن محمد على النجفي (ت: ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥م)
٦. كتب (تراجم آل أبي جامع العاملي) المعروف ب (ملحق أمل الآمل) للشيخ جواد آل محي الدين النجفي (ت: ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤م).
٧. كتاب (أعلام الأعلام) للسيد مرتضى بن مهدي الغروي (ت: ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥م).
٨. كتاب (معرفة الأحوال في علم الرجال) للشيخ محمد رضا بن قاسم الغراوي النجفي (ت: ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١م).
٩. (أرجوزة في علم الرجال) نظم السيّد عبد الحسين آل كمونة الحسيني النجفي (ت: ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٨ م).
١٠. كتاب (تراجم آل طاوس) للسيد محمود بن علي الحسيني النجفي (ت: ١٣٣٨ هـ/ ١٩١٩ م).
١١. كتب (تكملة أمل الآمل، عيون الرجال، مختلف الرجال، حاشية على تلخيص الرجال) للسيد حسن السيد هادي الصدر (ت: ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٦م).

كالشيخين: أبي طالب حمزة بن محمد بن شهریار، وحفيده الشيخ علي الذي تقلد الزعامة الدينية في النجف الأشرف بعد الشيخ أبي علي الطوسي، وكذلك أعلام آخرون من أسرة آل الطخال، كالشيخ حسين بن أحمد الطخال، وولده الشيخ علي، ونظرانهم من الأعلام.

وقد تعرّضت مدرسة النجف لحالة من الضعف بظهور مدرسة الحلة في القرن السابع والثامن الهجريّين بسبب استقرار أوضاعها الاقتصادية والسياسية، وظهور شخصيات علمية كبيرة فيها، كابن إدريس الحلّي المتوفى (عام ٥٩٨ هـ)، والمحقق الحلّي المتوفى (عام ٦٧٦هـ)، والعلامة الحلّي المتوفى (عام ٧٢٦هـ) وسواهم من رجال العلم والفكر الذين استقطبتهم مدينة الحلة، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود شخصيات علمية كبيرة في مدرسة النجف في القرن السابع الهجري، كالسيد إبراهيم الخوارزمي، والحسين بن عبد الكريم الغروي المتوفى (عام ٦٧٧ هـ) الذي تولّى خزّانة الروضة الحيدرية، ومن أعلام القرن السابع الهجري لهذه المدرسة الشيخ الفاضل محمد بن الحسن الرضي الاسترآبادي: المتوفى (عام، ٦٨٦ هـ أو ٦٨٨ ق) صاحب كتاب (شرح الكافية) (١٢)، وفي القرن التاسع الشيخ محمد ابن أبي جمهور الأحسائي المتوفى (سنة: ٨٠٠ هـ) صاحب كتاب (عوالي اللآلي) وغيرهم من أفاضل العلماء.

وبعد وفاة فخر المحققين الحلّي (عام: ٧٧١ هـ) وهجرة تلامذته إلى النجف استعادت مكانتها العلمية، ولاسيّما بعد قدوم المقداد السيوري المتوفى (سنة: ٨٢٦ هـ) الذي بنى مدرسة خاصة لطالّاب العلم، وشكّل قدوم المحقق الكرّكي المتوفى (سنة: ٩٣٩ هـ أو ٩٤٠ ق) تحفيزاً للعلم والعلماء، وكذلك نزول المقدّس الأردبيلي المتوفى (سنة: ٩٩٣ هـ) أرض النجف، وما شكّله من حلقات درس اجتمع فيها من العلماء المعروفين ليعدّوا من علماء مدرسة النجف الأشرف في القرن العاشر، لوكان للصراع العثماني – الصفوي أثر في قلة هجرة طالّاب العلم إلى النجف في القرن الحادي عشر، إلا أنّ ذلك لم يمنع من احتضان مجموعة من العلماء وطالّاب العلم، كالشيخ أمين الدين بن محمود بن أحمد بن طريح، والشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد الحسين من آل المظفر، والشيخ فخر الدين الطريحي صاحب كتاب (مجمع البحرين)، والمحدث الاسترآبادي الذي قال: ممّن تشرّفت بالاستفادة وأخذ الإجازة منه في عنقوان شبّابي في المشهد المقدس الغروي السيد السند، والعلامة الأوحد، صاحب كتاب (المدارس وشرح الشرائع).

وأثر الصراع الفكري والعلمي في القرن الثاني عشر بين الأخباريّين والأصوليّين في كربلاء على الحركة العلمية في النجف الأشرف مع ظهور مجموعة من الأعلام في هذه المدرسة، كالشيخ خضر بن يحيى بن مطر والد الشيخ جعفر الكبير (كاشف الغطاء)، ليشهد القرن الثالث عشر الهجري ازدهار الحركة العلمية، وتوسّعها، وهجرة طلبة العلم إليها، وتشجيع المدارس، كمدرسة الصدر، وكاشف الغطاء، ومدرسة القوام، وكان لرجوع السيّد بحر العلوم (ت: ١٢١٢ هـ)، والشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت: ١٢٢٨ هـ) من كربلاء أثر واضح في ازدهار الحركة العلمية، وتنوع نشاطها الفكري،

كما تبع ذلك هجرة الكثير من العلماء الأغاظم، كالسيد محمد جواد العاملي(ت: ١٢٢٦ هـ) صاحب كتاب (مفتاح الكرامة)، والشيخ محمد حسن النجفي (ت: ١٢٢٦ هـ) صاحب كتاب (جواهر الكلام)، والشيخ مرتضى الأنصاري (ت: ١٢٨١ هـ) وقد عدّت مدرسة النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهجري «جامعة إسلامية شاملة لمبّاديين النشاط العلمي والأدبي والاجتماعي والسياسي، وفي الوقت نفسه كانت مركزاً مهمّاً

لمدينة النجف الأشرف كيان خاصّ ميّزها عن غيرها من الحواضر والمدن الإسلامية. فكان هذا التمييز متأثراً من عمق تاريخي لمثلث حضاري: «الحيرة والكوفة والنجف» قبل الإسلام، وبشرف استحقته بعد الإسلام بوجود قبر وصي الرسول الأعظم ؟ص الذي قال فيه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ليكون هذا القبر امتداداً للعتاء الفكري والديني والسياسي لهذه الشخصية الخالدة،

■ تاريخ الحركة العلمية

فقد أرجع البعض تاريخ الحركة العلمية إلى أنّها امتداد لمدرسة الكوفة، وإلى ما قبل هجرة الشيخ الطوسي في بداية القرن الرابع الهجري؛ مستدلّين على ذلك بصدور بعض الإجازات العلمية من النجف الأشرف، كالإجازة التي ذكرها الشيخ النجاشي (ت: ٤٥٠ هـ) عند ترجمته للحسين بن أحمد البوشنجي بقوله: «أجازنا بروايته أبو عبد الله بن الخمري الشيخ الصالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام سنة أربعمائة عنه».

واعتبر الدكتور حسن الحكيم أن بناء عضد الدولة البويهوي للرواق العلوي عند زيارته للنجف (عام ٣٧١ هـ) الذي بقي إلى (سنة ٧٥٣ هـ)، وشاهده ابن بطوطة في رحلته دلالة على اعتبار هذا الرواق أول مدرسة علمية اتخذها الفقهاء مكاناً للدرس والتدريس.

واستدل آخرون بوجود بعض الأسر العلمية النجفية آنذاك التي أنجبت عدداً من رجال العلم والفضل كأُسرة «آل الطحال» وهي إحدى الأسر التي تسلمت مفاتيح الروضة الحيدرية الشريفة، وامتدّ وجودها وشهرتها إلى القرن السادس الهجري و من أعلامها الشيخ حسن بن الحسين بن الطخال المقدادي الذي كان يروي عنه السيد ابن طاووس في كتابه (فرحة الغري)، وأسرة بني سدرة العلوية، الذي كان من أعلامها شرف الدين محمد المعروف بابن سدرة المتوفى (عام ٣٠٨ هـ). إلا أن هجرة الشيخ الطوسي إلى مدينة النجف الأشرف عام (٤٢٨هـ) كان نقطة تحوّل في تنظيم هذه المدرسة وإعطائها بعداً علمياً جديداً، ولتأخذ موقعها بين المدارس الفكرية، ولتكون امتداداً لمدرسته في الفكر الإمامي في بغداد، ويتجه إليها طالّاب العلم من كلّ بقاع العالم الإسلامي، فكان دور الشيخ الطوسي دوراً تنظيميّاً، وليس تأسيسيّاً لهذه المدرسة.

وبعد وفاة الشيخ الطوسي (عام ٤٦٠هـ) استمرّت مدرسة النجف الأشرف بالازدهار العلمي في القرن السادس الهجري، وكان على رأس هذه المدرسة الشيخ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي الذي أجازاه والده (عام ٤٥٥ هـ) وإليه تنتهي أكثر الإجازات العلمية عن الشيخ الطوسي حيث لُقّب بالمفيد الثاني، ويقول ابن حجر: «صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي».

وحافظ على هذه الأسرة العلمية من بعده ولده الشيخ أبونصر محمد بن أبي علي الطوسي، فقام برعاية المدرسة العلمية في النجف الأشرف حيث انتقلت إليه الرئاسة الدينية بعد وفاة أبيه.

وقد تهافت على النجف في عصره كثير من طلاب العلم من شتّى بقاع العالم الإسلامي، فقد أورد ابن العماد الحنبلي في حوادث (سنة: ٥٤٠هـ) نصّاً يدلّ على مدى تطوّر الحركة العلمية خلال عصره هذا بقوله:

شيخ الشيعة وعالمهم... رحلت طوائف الشيعة من كلّ جانب إلى العراق. وحملوا إليه، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد.

فضلاً عن هذا فقد برزت مجموعة أخرى من الأعلام الذين ينتمون إلى أسر علمية لها امتدادها في هذه المدينة،